الإسلام وأسس الحكم الصالح

لحضرة الأستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور

الأستاذ بكلية الآداب ، وعضو مجامع الشرق

الحكم الصالح دعوى يدعيها حكام الساعة دائما ، ويباهون بها على من سبقوهم ، وقضية كانت ولا تزال مثار أخذ ورد واختلاف فى الرأى والتقدير ، ولا نزاع فى أن الصراع العالمى القائم اليوم يمت بصلة إلى أنظمة الحكم وتباينها ، فهو إلى حد ما — أو كما يصوره المتحاربون على الأقل — صراع بين الديمقراطية والدكتاتورية ، وكيفما كانت نتيجة هذا الصراع فإنا نتوقع أن يُدخل بعض التغيير على نظم العالم الحكومية ، وأن يكون له رد فعل فى عالم السياسة لا يقل عن أثره فى عالم الاقتصاد .

وخيرا فعلت " رابطة الإصلاح الاجتماعى " فى تخيرها هذا الموضوع بين أحاديثها الطريفة الشيقة ، وفى مؤتمرها الجامع الذى يعتبر حركة مباركة فى سبيل النهوض والإصلاح ، والذى نرجو أن تقيمه كل عام ، لا سيما ونحن نشعر جميعا بأن أداتنا الحكومية قد تطرق إليها الشىء الكثير من الفساد والوهن : ففيها نظم عتيقة بالية تتطلب التغيير والتجديد ، وتسودها روح خبيثة أثرة ، لا ترقب فى أداء الواجب إلا ولا ذمة ، ولا ترعى فى المصلحة العامة مراقبة الله ولا محاسبة الضمير ، وكل ما تنشده درجة ترقى إليها أو علاوة تحظى بها ؛ إلى غير ذلك من عيوب ونقائص إن لم نتداركها اليوم ربما عز علينا تلافيها فى المستقبل .

وخيرا فعلت " الرابطة " أيضا فى الاهتداء بهدى الإسلام والاستنارة بنوره ، فهو معين لا ينضب ، وتراث عظيم يسوؤنى أنا جهلناه أو تجاهلناه ونحن فى مسيس الحاجة إليه ، ذلك لأن حاضرنا إن لم تتوثق العلائق بينه وبين ماضينا فلا خير فيه ، ونهوضنا إن لم يقم على دعائم الإسلام فلا أساس له ، فما أجدرنا إذن ، وخاصة فى هذه الظروف العصيبة ، بأن نتجه نحو الحضارة الإسلامية فنتدارسها ونقف على معالمها ، ونذكر الناس بمجدها وعظمتها ، ونلقى عليهم موعظتها . ولا يساورنى شك فى أنها إن فهمت على وجهها الصحيح ستيسر لنا سبل الخروج من كثير من المآزق الحرجة الحاضرة ، وستحقق كل ما أفلست فيه الحضارة الغربية ، ولا أظن أحدا ينكر هذا الإفلاس اليوم ، كما لا ينكر واحد منا أنا من أجهل الأمم بمجدها الخالد وتراثها التالد .

ولا نستطيع أن نعرض هنا لمختلف الآراء السياسية في الإسلام ، ولا أن ندخل في تفاصيل بعض النظريات والمشاكل التي أقامت المسلمين وأقعدتهم منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى اليوم ، وسنقتصر جديدنا على نقط ثلاث رئيسية : تدور أولاها حول الدراسات السياسية في الإسلام ، وتتصل الثانية بمميزات الحكم الصالح بوجه عام ، وتبين الأخيرة الى أي مدى أشادت التعاليم الإسلامية بهذا الحكم ودعت اليه .

وكلنا يسلم بأنا لم نمنح بعد البحوث السياسية الإسلامية ما تستحق من عناية ، فلم نجمع شتاتها ، ولم نبين العوامل التي أثرت فيها ، ولم نوضح مبادئها وأصولها ، وهي بلا جدال أقل الدراسات الإسلامية كتابة وتأليفا في العصر الحديث . وربما كان ذلك راجعا إلى أنها تثير الظنون وتبعث على الشك والريبة ، فلا يعرض باحث لموضوع الخلافة مثلا إلا ويتقول عليه الناس ما يتقولون . وقد يرجع ذلك أيضا إلى أنها مبعثرة في كتب الأدب والتاريخ والتوحيد والتشريع ، فليس من السهل تكوين فكرة واضحة عنها ، وليس في مقدور كل باحث أن يدلي فيها برأي ناضج . ولكن السبب الأقوى فيما نعتقد لهذا الإغراض ، هو أنا شعلنا بالسياسة الغربية عن السياسة الشرقية ، وصرفنا أفلاطون ومونتسكيو عما يقوله الفارابي وابن خلدون . وعلى كل حال هناك سياسة اسلامية انفردت بمميزاتها وخصائصها .

نعم امتاز الإسلام بسياسته الخاصة العملية والنظرية ، ولا نا لندع هنا جانبا السياسة العملية وما ولدت من مشاكل وما سببت من فتن وحروب ، ونولي وجهنا فقط شطر السياسة النظرية التي بدأت منذ فجر الدعوة وأخذت تنمو على مر الزمن . فقد رسم الكتاب والسنة خطوطها الأولى ووضعوا مبادئها ، ثم جاء الخلفاء الراشدون فوضحوا هذه المبادئ ووسعوها في خطبهم ورسائلهم وعهودهم ، وإن ما جرى على ألسنتهم من مواعظ وحكم لكفيل بأن ينتظم منه عقد سياسي كامل .

ويظهر أن الأحداث والخطوب ، والخلاف بين العلويين والأمويين ، والخصومة بين الفرس والعرب عدت الآراء السياسية بأكثر مما عدتها خطبة مرتجلة أو رسالة محررة . ولا أدل على هذا من أن أولى المشاكل الكلامية في الإسلام إنما أثارتها اختلافات سياسية ، فالتفرقة بين المؤمن والكافر ، والحكم على مرتكب الكبيرة ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين إنما جاء ثمرة لمحنة الحوار العنيف الذي دار بين الخوارج وغيرهم ؛ ويمكننا أن نقول في اختصار إن الفرق والمدارس الكلامية الإسلامية إنما نشأت في جو السياسة وتحت لوائها . ويكفي النظريات السياسية في الإسلام خطرا أن أضحت جزءا من العقيدة تدرس معها ولا تكتمل هذه إلا بها ، ولا زلنا نلاحظ حتى اليوم أن "باب الإمامة" يشغل حيزا في الكتب التوحيدية الهامة . ولعل هذا هو السر في تلك القداسة التي تحيط بالموضوعات السياسية الإسلامية ، فيضطر الباحث إلى أن يلمسها في حذر وحيطة .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أبى الفقهاء إلا أن يساهموا فى هذا المضمار ، فتحدثوا عن القضاء والقضاة ، والولاية والولاة ، وحددوا فى اختصار وظيفة السلطة القضائية والتنفيذية ، وبينوا بعض طرائق الاجتهاد والتشريع . حتى إن القانون الأساسى لم يوضع فى الإسلام بوضوح ، ولم تعرف له نصوص دقيقة محكمة ، ويعتبر الفقه الدستورى بوجه عام أضعف أبواب الفقه الإسلامى . ولكنى على يقين من أن علماء القانون الإدارى والدستورى سيجدون فى المصادر الإسلامية لذة ومتاعا إن هم تتبعوها ودرسوها .

وإذا ما تحدثنا عن سياسة إسلامية فليس معنى هذا أنها كانت بمعزل عن المؤثرات الخارجية ، بل أخذ العرب عن غيرهم فى السياسة كما أخذوا فى العلم والفلسفة ، وتتلمذوا للفرس والرومان واليونان فى كثير من نظمهم الإدارية وتعاليمهم السياسية . ففى أوائل القرن الثانى للهجرة نرى ابن المقفع ينقل إلى العربية حكمة الهند والفرس وآداب الملوك والرعية ، وينظم شئون الجيش والدولة ، وكتبه المشهورة ، من كليلة ودمنة ، إلى الأدب الكبير والأدب الصغير ، تتصل بالسياسة اتصالها بالأدب ، وأما " رسالة الصحابة " فهى بحث سياسى خالص . وإذا ما انتقلنا إلى القرن الرابع رأينا الفارابى يؤسس للمسلمين مدينة فاضلة على غرار جمهورية أفلاطون .

* * *

ففى ثنايا ذلك كله يمكن أن نعرف موقف الإسلام والمسلمين من الحكم الصالح فى دعائمه وغايته . ولا ترجع صلاحية الحكم إلى شكله والنظام الذى يعتمد عليه فحسب ، فلا تفضل الجمهورية لذاتها الحكم الملكى لذاته ، وإنما امتياز كل بقدر ما يوفر على الشعب من سعادة وهناء . وفوق هذا فالنظام الحكومى خاضع للعصر والبيئة ، وما يصلح لجيل قد لا يصلح لغيره ، وما يلائم أقواما ربما ينفر منه آخرون . ويمكن أن يقال على العموم إنه لا يكاد يخلو شكل من أشكال الحكم من مآخذ ومطاعن ، وأصلح الحكومات ما ساعد على نشر الخير والفضيلة وحقق أكبر نفع ممكن للمجتمع .

ومن أقوى دعائم هذا الحكم الصالح أن يقوم على أساس روحى ويحمل دعوة إصلاحية . فالحاكم الذى لا رسالة له لا عمل له ، وأغرب الحكام من لا يفكر فى أعباء الحكم إلا حين يضطلع بها ، أو من تسوق اليه الأقدار والصدف مسئوليات خطيرة لا علم له بها ولا جلد له على تحملها . وحكام الجاه والشهرة أبعد الناس عن المجتمع فى الوقت الذى يزعمون فيه أنهم أقرب ما يكون اليه ، لا يحسنون إلى الجماهير فى شىء ، ولست أدرى إن كانوا يحسنون إلى أنفسهم الإحسان كله . وإذا لم يشعر الحاكمون والمحكومون بشعور واحد ويحسوا بإحساس مشترك فقل أن يطاع حاكم أو يخضع محكوم ، فصلة الدين والعاطفة والعادات والتقاليد هى ذلك الرباط الروحى الذى يؤلف بين الشعب والقائمين على أمره .

وليس ثمت حكم صالح إلا حيث تسود العدالة والمساواة ، فيسوى بين الأفراد فى جميع الحقوق المالية والسياسية ، وينظر اليهم القانون والقضاء نظرة واحدة ، لا فرق بين أمير وحقير ، ولا بين كبير وصغير ، وبهذا يقضى على مزايا الدم والمحتد وخصائص النسب والمولد ، ويصبح عباد الله وكلهم اخوان سواسية . وبقدر ما تتحقق العدالة والمساواة فى أمة بقدر ما يتم التضافر بين أبنائها وتتحد القلوب والأفئدة .

والحكم الصالح يتطلب أيضا قسطا وافرا من الحرية يحول دون زيفه ويقوم من عوجه ، حرية فى العمل تسمح للأفراد بالنهوض والتجديد ، وحرية فى التفكير تبيح لهم أن يعرجوا إلى عالم السماء ويغوصوا فى أعماق البحار فيكشفوا المجهب ويقفوا على ما غمض ، وحرية فى القول تفسح المجال للنقد وتمكن من الرقابة والإشراف . وحرية المحكومين هى الضمان الكافى الذى يحول دون استبداد الحاكمين ، ومن لم يتقدس حرية الآخرين فلا يلومن إلا نفسه اذ اما استعبدوه وأخضعوه لسلطانهم .

والحكم الصالح يستلزم أخيرا احترام الشخصية الانسانية لذاتها ، فلا يعتبر الإنسان شيئا أو متاعا يتبادل فى الأسواق تبادل السلع ، وإنما هو كائن حى ذو ارادة يجب أن تحترم ، وميول ورغبات ينبغى أن يحسب لها حساب . ويوم أن ينظر إلى الانسان هذه النظرة تزول الفوارق بين الأفراد ، ويصغر أى متاع من أمتعة الدنيا مهما عظم عن أن يوضع مع الإنسان فى كفة ميزان ، وتأبى الشرائع أن تنزل بالإنسان عقوبات أو تطبق عليه قوانين تتنافى مع ما له من احترام وشخصية . وما الحرية والمساواة والعدالة والإخاء التى أشرنا اليها من قبل إلا ثمرة من ثمار نمو الشخصية الإنسانية وتقديسها .

* * *

تلك هى دعائم الحكم الصالح ، لم تبتكرها الإنسانية ابتكارا ولم تصل اليها دفعة واحدة ، وإنما كشفتها فى بطء وبعد جهود عظيمة متواصلة ، وهداها اليها وحى السماء وإلهام من فى الأرض . والإسلام بلا جدال من أكثر الديانات السماوية توضيحا لهذه الأسس وإدعاما لها ، وضخها بالقول والعمل ، وبنى عليها سياسته وحضارته . فهو دين ودولة وهداية وسياسة ، قامت الدولة فيه على أساس الدين فامدها بجلاله وكساها من روعته ، وربط المسلمين برباط وثيق هو رباط العقيدة والقلب والروح ، ويوم أن ضعف هذا الأساس ضعفت الدولة معه . دين هو الحضارة وحضارة هى الدين ، فهى حضارة تحمل معها رسالة الخير والإصلاح ، وتخاطب العقول والأرواح قبل أن تخاطب المادة والأجسام ، وفرق ما بين هذه الحضارة الروحية وحضارة الغرب التى تعتمد على المادة وتتشبث بها . فرسم الإسلام إذن للعرب حياة اجتماعية جديدة ، ونظمها من القاعدة إلى القمة ، وأقامها على أساس من الاخلاص واليقين .

وليس ثمت حديث عن العدالة والمساواة أسمى من حديثه ، ولا تعبير أروع من تعبيره : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : " المسلمون أمام الله سواسية ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى " ، ثم يقول أبو بكر بعده بقليل : " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " فجميع المسلمين في العبادة والمسئولية أمام الله سواء : " المؤمنون بعضهم أولياء بعض " ويقول محمد صلى الله عليه وسلم في مرض موته : " أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء فهي ليست من شأني " . وتلك ولاشك مساواة لم تصل اليها الحضارة الغربية بعد ، هي مساواة في إخاء ، وعدالة في مودة ، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه .

وقد رفع الإسلام شأن الحرية على مختلف ألوانها ، سواء أكانت حرية فكرية أم عملية وكلامية ، كما رفع شأن العدالة والمساواة : " أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ " " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " . ولا يقف القرآن عند هذا ، بل يذهب الى أن الدين الصحيح يتنافى مع التقليد الأعمى ، " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ " . فقامت العقيدة الإسلامية على التفهم والتفهم ، يدافع عنها المسلمون ويضحون في سبيلها ما استطاعوا ، وقد ضربوا أحسن الأمثلة لحرية الرأي والاعتداد به . فيخطب عمر بن الخطاب في فجر الإسلام ، فيقوم قائم ويقول له ، : " والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا " ، ويعلن عمر هذا نفسه على رءوس الإشهاد ذات يوم أن « أخطأ عمر وأصابت امرأة » . ثم يجيء المأمون الذي حكم هواه في العقيدة والسياسة ، فيحاول أن ينزل الناس عند رأيه ، فيأبى عليه المسلمون الأحرار ذلك ، ويعارضونه أشد المعارضة فالعرب أحرار بفطرتهم ، وحريتهم عزيزة لديهم ، فلما أتى الاسلام أكبر هذه الحرية فيهم ودعاهم الى الاستمساك بها .

وما قدس الاسلام الحرية ودعا إلى المساواة إلا ليرفع من شأن الانسان ويصعد به إلى المستوى اللائق . " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " . ولا تظن أن كتابا دينيا سما بالنفس الانسانية قدر ما سما بها القرآن ، واعتد بها وثمن في مخاطبتها .

هذا هو درس الإسلام ، وهذه هى موعظته ، فهل آن لنا أن نتأمل فى الدرس ونتدبر الموعظة ؟ وقد أشرنا فى بدء هذا الحديث إلى ما يحظ أداتنا الحكومية من ضعف ووهن : إهمال من الرؤساء ، وتقص فى المرءوسين ، فلا وازع من دين أو ضمير ، ولا رابطة تجمع الكلمة وتوحد الجهود ، ولا رسالة نزعم أنا نؤديها فنطمئن اليها ونتغنى بها . وإنما هى حياة راكدة تسير على وتيرة واحدة : يومها كساعتها ، وشهرها كأسبوعها ، الكل أو الجل يقضى ساعات لتحسب له فى قائمة الحضور ، وينال من أجلها الدراهم والدنانير . وأما العدالة والمساواة فقد أصبحتا ولا وجود لهما ، وضج الناس بالشكوى من اهمالها ولا سميع ولا مجيب ، وكأنما الجور والمحاباة هما غاية الحكم فى هذا الزمان . وكدنا نفقد الأمل فى أى تغيير أو تبديل ، لأنا طالما أقلنا ولم يعقب أملنا إلا الخيبة ؛ وأخشى ما نخشاه أن تتحول شكوى الشاكين إلى ثورة لا يعلم إلا الله مداها !

ابراهيم مدكور